الأخبار
al-akhbar

■ رئيس التحرير ـ المدير المسؤول:
ابراهيم الامين

■ نائب رئيس التحرير:
بيار أبي صعب

■ مدير التحرير:
وفيق قانصوه

■ مجلس التحرير:
حسن عليق
إيلي حنا
أمل الأندري

■ **صادرة عن شركة أخبار بيروت**

■ المكاتب **بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد ـ الطابق الثامن**
■ **تلفاكس:**
01759500
01759597
■ **ص.ب 113/5963**

■ الإعلانات
الوكيل الحصري
ads@al-akhbar.com
01/759500

■ التوزيع
شركة الأوائل
01 /666314ـ15 ـ
03 / 828381

■ الموقع الالكتروني
www.al-akhbar.com

■ صفحات التواصل

/AlakhbarNews

@AlakhbarNews

/alakhbarnews-paper

لماذا فشل اليسار الثوري اللبناني والفلسطيني؟

أسعد أبو خليل *

سألني قبل أيام حسن خلف عن توافر مواد منشورة عن فشل تجربة اليسار اللبناني الثوري. فكرتُ في الموضوع وحفّزني السؤال على المساهمة الجنينيّة في محاولة الإجابة عن السؤال. تجربة اليسار اللبناني والفلسطيني لم تكن واحدة، إذ إن عوامل مختلفة شابت التجربتيْن وأعاقت عملهما، وإن تشابكت التجربتان، خصوصاً خلال سنوات الحرب الأهليّة. وقد بات الحديث عن اليسار الثوري له شهية خاصّة في لبنان، بعد انتشار اسم علي شعيب على جدران بيروت وانتعاش ذاكرة أُريدَ لها أن تُغيّب. قصة علي شعيب، التي تجاوزت تخليد أغنية مارسيل خليفة وقصيدة عبّاس بيضون لها، باتت راهنة (وقد أعاد التذكير بها كتاب عباس الحسيني الأخير عن عمليّة بنك أوف أميركا). علي شعيب ذكّر جيلاً جديداً من اللبنانيين بمحاولات ثوريّة لجيل سبقه، ونشطَ قبل اندلاع الحرب الأهلية. وساد شعار علي شعيب الجدران، ومواقع التواصل، إلى درجة تنبّه إليها الرجعيّون في الإعلام السعودي والقطري، وحذّروا من مغبّة الانجرار (مع أن إعلام النظاميْن المذكوريْن يصطنع التعاطف مع انتفاضة شعب لبنان، لا بل يصرّ على وصفها بالثورة، لأن سلالات الخليج مرجع أكاديمي في شؤون الثورات).

لم يكن اليسار اللبناني والفلسطيني الثوري من نهج اليسار التقليدي نفسه. اليسار التقليدي في لبنان تمثّل بالحزب الشيوعي اللبناني، وحليفه منظمّة العمل الشيوعي (يبدو أنّ التناحر والخلافات بين التنظيميْن ذابت بعد اندلاع الحرب، وساعد في التقارب الوئام بين محسن إبراهيم وجورج حاوي، لكن كل محاولات الاندماج، المنطقيّة، لم تفضِ إلى نتيجة، وبقي الحزبان محافظيْن على تمايزهما التنظيمي، حتى بعد انتهاء الحرب). كان اليسار اللبناني الثوري يطرح شعار تغيير النظام اللبناني بالقوة، فيما كان اليسار الفلسطيني يعوّل على الكفاح المسلّح، في أرض فلسطين وفي «كل مكان»، أكثر من فصائل المقاومة الأخرى، كوسيلة وحيدة لتحرير فلسطين. الحزب الشيوعي اللبناني، ومنظمة العمل الشيوعي، ارتاحا للنمو المطّرد في صفّيهما، وعوّلا على ثمار النضال البرلماني: أي العمل السياسي والنقابي المنظّم، بهدف إيصال ممثّل للحزب إلى المجلس النيابي. وكان الحزب الشيوعي في طريقه لإيصال نائب أو نائبيْن بعد سنوات عديدة، لو لم تندلع الحرب الأهلية (نال نقولا الشاوي 7609 أصوات في انتخابات 1972)، هذا لو اضمحلّ تدخّل السلطة يومها ضد مرشحي اليسار (كان كامل الأسعد يوعز إلى أجهزة السلطة لتعطيل الأداء الانتخابي لمنافسيه في الجنوب، لكن بعد الانتخابات الفرعية في النبطية، في عام 1974، وهزيمة مرشّح الأسعد وفوز مرشح منافسيه، رفيق شاهين، لم يعد هناك مجال لكبت أصوات الجماهير المُعبّأة ضد الإقطاع).

اليسار اللبناني كان يطرح برنامجاً آخر، بعضه تأثّر (مثل إبراهيم حطيط ومرشد شبّو في «الحركة الثورية الاشتراكية اللبنانية») بـ«حرب عصابات المدن». وكانت الفكرة تعتمد، في أصولها، على الإيمان بقدرة أعمال العنف الثوري في المدن على تعبئة الجماهير في الريف (والمدن) للقيام بثورة شاملة. ونمت في أوروبا، في السبعينيّات، نماذج لمنظّمات آمنت بالفكرة (مثل «بادر ماينهوف» في ألمانيا و«الألوية الحمراء» في إيطاليا و«العمل المباشر» في بلجيكا). لكنّ هذه التنظيمات (التي استفادت من تدريب عسكري وتمويل من المقاومة الفلسطينية، مقابل مساعدات لوجستية مهمّة)، لم تؤثّر في المسار السياسي في تلك البلدان، إلا في تجييش اليمين الفاشي وأجهزة الدولة التي استعملت فزاعة الأمن كي تقضي على تلك التنظيمات. وبالسرعة نفسها التي انطلقت فيها هذه التنظيمات، انهارت وانهار معها مناضلوها تحت وطأة التعذيب. وعانى كلّ هذه التنظيمات من قحط في الموارد، فكانت تعتمد على أعمال «السرقة» حيناً، لكن عندما تزداد المصاريف يأتي رعاة خارجيون فيتطوّعون بالتمويل مقابل خدمات لهم.

التمويل: كل حركات اليسار الثوري تبدأ بضرورة الإصرار على التمويل الذاتي، مخافة التأثير من رعاة خارجيين. وكان وديع حدّاد، للأمانة، من دعاة التمويل الذاتي (معتمداً على أساليب مبتكرة تخالف الأنظمة والقوانين في الدول المعنية). لكن البعض في «الجبهة الشعبية» اعترض على ذلك، بحجّة أن الأخلاقية الثورية للتنظيم يجب أن تتعارض مع سرقة المصارف، مثلاً، أو مع تهريب، أو ما شاكل. كانت أخلاقيات رفاق وديع حداد بورجوازية التأثير. لكنّ الأخطر في تلك المرحلة: أنه ما إن يصعد تنظيم للقيام بعملية مسلّحة، حتى يتقدّم إليه متطوّعون من كل حدب وصوب عارضين خدماتهم، وذلك لاستيعاب الظاهرة الجديدة واستخدامها لغايات التنظيم المموّل. عندما اغتال الطالب المفصول من الجامعة الأميركية في بيروت، نجم نجم، عميد كلية الهندسة في الجامعة، استدعاه أبو أياد وأهداه مسدّساً، وعرض عليه العمل لصالح «فتح»، لكنّ نجم لم يكن في هذا الوارد، وكان جلّ ما يريده هو إكمال دراسته. «الحركة الاشتراكية الثورية اللبنانية»، مثلاً، اعتمدت على السطو على المصارف كوسيلة تمويل لها، وذلك من باب الحرص على الاستقلالية. وبعض رفاق شبّو، كما في حالة «الجبهة الشعبيّة»، رأوا في الاعتماد على عمليات غير قانونية (بمفهوم الأخلاقيات البورجوازية السائدة)، عملاً غير أخلاقي. لكن عروض التمويل كانت سرعان ما تأتي، وذلك لأنّ «فتح»، بصورة خاصّة، والاتحاد السوفياتي أيضاً، كانا يخشيان فلتان زمام الأمور في الساحة اللبنانية والفلسطينية، وكانا يخشيان انتشار تنظيمات اليسار المتطرّف. السيطرة والإمساك بزمام الساحات، كانا هم ياسر عرفات الأساسي، لأنّه لم يرد لأحد أن يؤثّر في معادلات موقفه من إسرائيل.

كان الاتحاد السوفياتي يهبّ لتمويل منظّمات يسارية فلسطينيّة وتسليحها، ليس من أجل دفعها نحو الكفاح المسلّح، بل لدفعها نحو مسلك أقلّ تطرّفاً. والعلاقة بين «الجبهة الشعبيّة» والاتحاد السوفياتي كانت وراء تنصّل اللجنة المركزية للجبهة من «العمليات الخارجية»، في عام 1971. في الساحة اللبنانية، كانت حركة «فتح» هي التي تظلّ برأسها من أجل رعاية تنظيمات صغيرة، مقدّمة لها الحماية (وهي قدّمت حماية لشبّو) مقابل شروطها. اليسار الثوري الفلسطيني عانى هو الآخر، لأنه كان يجد دائماً عروض رعاية من النظام العراقي والليبي، ومن قبل الاتحاد السوفياتي عبر الـ«كي جي بي»، الذي فتح خطوطاً مع وديع حدّاد بعد خروجه عن قرار الجبهة بوقف العمليات الخارجية (هذه وفق رواية قيادة «الجبهة الشعبية» في ذلك الحين، والتي سمعتها من قائد فيها).

اليسار الثوري اللبناني كان يجد رعاية في «الجبهة الشعبيّة»، لكنّ الجبهة كانت هي، أيضاً، تخضع منذ خروج حدّاد لرعاية خارجية، تجلّت أكثر ما تجلّت بعد تشكيل جبهة الرفض في عام 1974. إلّا أن رعاية النظام العراقي هي التي عطّلت إمكانية قيام «الجبهة الشعبية» بما يمكن أن يعطّل مسار الحل السلمي التسووي، الذي قامت الجبهة ضده، لأنّ النظام العراقي والليبي لم يكونا ملتزميْن جدياً بتعطيل الحلّ السلمي، وهذا ما فسّر تنقّل «أبو نضال» بين النظاميْن البعثيّيْن في سوريا والعراق، ووفقاً لمصالحهما الآنية. وكان بعض أجهزة استخبارات دول أوروبا الشرقية، يتدخّل في تسليح بعض تنظيمات اليسار الثوري وتمويلها، كي يتدخّل في شؤونها، ويحدّ من حماستها (الاستخبارات البلغارية أقامت علاقة مع «حزب العمل الاشتراكي العربي - لبنان»).

التشرذم: سادت حالة فظيعة من التشرذم صفوف اليسار المتطرّف. وكانت هذه الحالة ناشئة عن عوامل ذاتية وموضوعية. كانت الخلافات بين قادة التنظيمات اليسارية حادّة وشديدة، لأنّ معظم قادتها خرجوا من رحم التنظيم نفسه (إمّا «حركة القوميّين العرب» أو «الجبهة الشعبية»). لم يستطع قادة هذه التنظيمات التآلف والتنسيق، لأنّ الخلافات بينهم كانت شخصية أحياناً. لم يكن الأمين العام لـ«حزب العمل الاشتراكي العربي - لبنان»، على وفاق مع قادة الأحزاب اليسارية الثورية المتطرّفة، والعكس صحيح (وهذا الرجل، أي هاشم علي محسن، انفصل عن جورج حبش في الثمانينيات، مع أنه يدين بموقعه القيادي لحبش نفسه). وكانت هذه الأحزاب صغيرة، كما كان يمكن أن يكون عملها أفعل، لو أنها توحّدت، لكنّ بعضها خرج عن بعضها الآخر، مثل خروج «الحزب الديموقراطي الشعبي» عن «حزب العمل»، وخروج «رابطة الشغّيلة» عن «حزب العمل» و«الجبهة الشعبية»، إلخ. ولم تكن كل الانشقاقات عفوية، مثل هذه الانشقاقات المذكورة التي كانت بسبب خلافات عقائدية وشخصية (والشخصانية ونزعة التفرّد في القيادة، شطّت في جسم اليسار الثوري كثيراً). انشقاق «الجبهة الشعبية الثورية لتحرير فلسطين»، بقيادة أبو شهاب، كان (نحن نعلم ذلك اليوم) بسيطرة من مخابرات النظام العراقي، وكان وليد قدّورة (الذي ثبتت عمالته لمخابرات الجيش اللبناني، من خلال عضويّته في اللجنة المركزية لـ«الجبهة»، كما أنّ هناك من يجزم إلى اليوم، مثل هيلدا حبش وبسام أبو شريف، أنه كان أيضاً عميلاً إسرائيلياً. لكنّ ماهر اليماني لم يكن يرى ذلك. وهو اليوم متقاعد بعدما هرب من لبنان بعد الاجتياح الإسرائيلي وعمل في الصحافة في دولة الإمارات)، مُحرّضاً على انشقاق «الجبهة الثورية»، وإن أحجم عن الانضمام ربما كي يستمرّ في مدّ مُشغّليه بالمعلومات.

بعض هذه التنظيمات المنشقّة، لم يكن يضم أحياناً أكثر من درّينة، وإن كانت بياناته توحي بأنه ينطق باسم آلاف الجماهير.

غياب الخطة: ما هي خطة اليسار الثوري؟ ماذا كانت الخطة التي اعتمدتها فصائل اليسار الثوري اللبناني والفلسطيني؟ مع الرغبة في إضفاء لمسة رومانسية مبرّرة عن تلك المرحلة: لكن لم يكن هناك خطة، موحّدة أو فردية، لفصائل اليسار اللبناني والفلسطيني. لم تكن لجبهة الرفض خطّة، مثلاً، وهي كانت أكثر حالة ثورية واعدة، لأنها أتت بفصائل متباينة العقائد والأهواء والقيادات (وهذه مشكلة في حدّ ذاتها)، كي تُحبط مشروع التسوية التي كان عرفات يمضي بها. هي كانت تطرح ضرورة الكفاح بالعنف الثوري المسلّح، وهذا كان شعار حركة «فتح» أيضاً. لكنّ التنظيمات لم تُعد مشروعاً متكاملاً متماسكاً، إمّا لتحرير فلسطين أو للقضاء على نهج التسوية، مع إخلاص وصدق نوايا وتضحيات الآلاف من المناضلين في كل فصائل المقاومة. لنقارنْ: غزت قوّات أميركية وإسرائيلية لبنان، في عام 1982، وكانت قوّتها المُشتركة للحفاظ على نظام أمين الجميّل التابع غير مسبوقة في تاريخ المنطقة. لكنّ مجموعة صغيرة من العقائديّين المتديّنين وضعوا خطة شديدة الطموح والجنون: إذ إنهم قرّروا في عام 1982 أن يطردوا القوّات الأميركية والقوّات الإسرائيلية من لبنان. وتسنّى لهؤلاء أن ينجحوا في غضون سنتيْن فقط، في طرد القوات الأميركية، وبالتدريج طردوا قوات العدو الإسرائيلي، ثم أذلّوه على أرض المعركة في حرب تمّوز عندما استسهل، كما كان يستسهل في الماضي، اجتياح لبنان متى يشاء. لكنّ هؤلاء وضعوا خطّة مُحكمة (وعندما يعد حسن نصر الله بخطة لإخراج قوات الاحتلال الأميركي من الشرق الأوسط، فإنّ لوعده مصداقية لم تكن تتوافر لوعود قادة المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية). وتنسب جماعة 14 آذار، ومعها بعض قادة الحركة الوطنية المتقاعدين، نجاح حزب الله إلى الدعم الإيراني. لكن قادة هذه الحركة الوطنية نفسها، حظوا في زمانهم بدعم سوفياتي وعراقي وليبي وجزائري وبلغاري وألماني شرقي وكوبي ويمني جنوبي وسوري (متقطّع). ماذا فعل توفيق سلطان وأمثاله بكل هذا الدعم؟ نعلم ماذا فعلوا به، ولم يكن تحريراً ولا خطط مواجهة. لكن نحن نتحدّث عن اليسار الثوري لا عن هؤلاء. إلا أنّ اليسار الثوري بحكم استظلاله بمنظمة التحرير أو الحركة الوطنية (لم يكن من فصائل اليسار اللبناني الثوري في إطار الحركة الوطنية إلا «حزب العمل» فقط)، تلقّى دعماً كبيراً أيضاً، لكنه لم يضع خطّة أو مشروع لتحقيق آماله. كان اليسار الثوري يريد تثوير الوضع واستنهاض الجماهير وخوض حرب شعبية، لكنه لم يفعل، أو لم ينجح في ذلك. ويرجع غياب الخطة إلى عوامل مختلفة، منها أنه لم يكن لديهم رؤية مشتركة تتخطّى الرغبة في إحياء الكفاح المسلّح. قامت الفصائل الثورية اليسارية بعمليات عديدة، وفجّرت مكاتب ومصارف وسفارات وشركات طيران، لكن لم يكن ذلك من ضمن خطة أبعد من اللحظة. وكان «حزب العمل الاشتراكي العربي» يأخذ على الحزب الشيوعي و«منظّمة العمل» إصلاحيّتهما، لكن من دون تقديم بديل ثوري (باستثناء أسبقيّة هذا الحزب في تقديم مشروع مقاومة مسلّحة ضد احتلال إسرائيل، في عام 1978، وإن كانت تجربته وتجربة «جمّول» لا تُقارن من حيث المستوى والفعالية والتأثير والحجم بمقاومة حزب الله). حاول «حزب العمل» تقديم بديليْن ثوريّيْن في حرب السنتيْن: 1) الثغرة في جبهة الشياح - عين الرمّانة، في أواخر 1976، وتأميم أملاك كاظم الخليل في صور. لكنّ التجربة الأولى لم تتطوّر، وأصبح الحزب مثل غيره ملتزماً بالحفاظ على خطوط التماس، لأنّ الأوامر العليا من ياسر عرفات ارتأت ذلك، والتزم الجميع. والتجربة الثانية باءت بالفشل، لأنّ التأميم تحوّل إلى تلزيم الأراضي واقتطاع الأرباح لصالح مالية الحزب. وقد أراد تنظيم وديع حدّاد أن يفعّل العمل العسكري، لأنّه افتقر إلى الدعم الجماهيري، ذلك أنّ انفصال الجبهة عنه حرمه هذا العمق البشري، فأصبحت عمليّة التجنيد أصعب له.

لم يكن لليسار اللبناني الثوري خطة لإسقاط النظام اللبناني. كان على حق في أنّ هذا النظام عصيّ على التغيير، وأنه لا يسقط إلا بالقوّة، ولم يسقط النظام اللبناني إلا بقوة انتفاضة 6 شباط في عام 1984. كذلك، كان اليسار الفلسطيني على حق في أولوية الكفاح المسلّح، وفي عبثيّة الحلول السلمية وضررها، لكنه لم يقدّم بديلاً عسكرياً لمشروع حركة «فتح» (العمليات الموسمية غير المرتبطة بخطة تحرير شاملة، كانت سمة كل التنظيمات).

السريّة: تميّزت تجربة حزب الله بطابع السريّة، وإن حاول خصومه التعبير عليه بسبب اكتشاف الحزب لبضعة جواسيس. لكن: الحزب اكتشفهم. تقارن ذلك بالاختراق الكبير الذي يحلّ بالحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينيّة. كان معنا في الجامعة الأميركية مناصر لـ«الجبهة الشعبيّة»، وكان هناك شكوك حوله. ومرة رآه شاب فلسطيني في دورة تدريبية، وصاح: لا يمكن أن أخضع لهذه الدورة مع هذا، لأنني عرفته زميلاً في المدرسة لسنوات وكان كتائبيّاً متعصّباً. لم تأخذ الأحزاب اليسارية السرّية على محمل الجد، وربما كان ذلك نزعة ذكورية من الاعتداد الرجولي، وكان الذي يحرص على السريّة يُقابل بالسخرية أو الاتهام بالجبن، إذا كان لا يريد تعريض وجهه في مهمّات علنية في الجامعة أو غيرها. وفي معسكر تدريبي في جنوب لبنان، جاء مسؤول حزبي من بيروت وصرخ في الرفاق: مَن فلان (ذاكراً الاسم الكامل، لا الحركي، للرفيق، وكان اسمه مجهولاً من أكثرية الحاضرين). فرفع الرفيق يده. فما كان من المسؤول إلا أن أعلمه، أمام الجميع، أنّ عمّته تسلّم عليه وقد اشتاقت إليه. غياب السريّة عرّض الأحزاب اليسارية للاختراق. تقارن ذلك بتجربة حزب الله، حيث لا يملك العدو صوراً لمن يطاردهم في المقاومة، إلا ما تجود لهم به عناصر في أجهزة الأمن اللبنانية (زاهي البستاني، حمل معه ملفات كاملة من الأمن العام). وحتى وديع حداد الذي يحرص على السريّة، أكثر من غيره، والذي لم تُنشر له صور إلا بعد موته (الوحيد من قادة المقاومة الذي لم تكن له صور منشورة عند اندلاع الحرب، هو أحمد جبريل، إضافة إلى حداد وأبو نضال)، تعرّض للاختراق، من حركة «فتح» على الأقل، وبتوكيل من «أبو جهاد».

ياسر عرفات: يتهمني بعض الأصدقاء بأنني أُضفي لمسة رومانسية على مرحلة 1975 - 76 من الحرب الأهلية. وهؤلاء على حق، ولو أنني كنت أتوقّع المعجزات الثورية من استمرار العمليات العسكرية التي أوقفها تدخّل النظام السوري. إنّ قيادة ياسر عرفات وكمال جنبلاط لا تولّد ثورة. كان ياسر عرفات يقف بقوة ضد الحسم العسكري، وكانت قيادات «فتح» العسكرية (مثل أبو صالح وأبو خالد العملة) تنتظر سفر عرفات كي تزيد من الدعم العسكري للقوى الوطنية في الحرب. أمّا كمال جنبلاط، فقد بدأ الحرب بالشكوى من «اليسار المغامر»، ثم تطوّر موقفه (المشوب بنزعة طائفية ضد الموارنة عبّر عنها في كتابه «الوصيّة») نحو الإصرار على الحسم العسكري، والذي أدّى إلى الصراع بينه وبين النظام السوري. لكن هل كان لنصر القوات المشتركة، لو تم، أن يشكّل جمهورية يسارية ثورية بقيادة عرفات وجنبلاط؟ طبعاً لا، إذ إن القياديْن كانتا محافظيْن، وكانتا ستعارضان الاتجاهات الثورية. لكنّ اليسار اللبناني والفلسطيني رضخا لقيادة عرفات ولم يحاولا طرح مشروع بديل من طرح عرفات. نجح هذا الأخير في شراء قيادات فلسطينية في كل التنظيمات الفلسطينية. كان له مندوب، على الأقل، في كل قيادة تنظيم فلسطيني. كان ياسر عبد ربه، مثلاً، نائب الأمين العام للجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين، لكنّ ولاءه لعرفات كان أقوى من ولائه لقائد تنظيمه، الذي انشقّ عنه بعد أوسلو. عرفات لم يسيطر، أو يؤثّر، على مسار التنظيمات الفلسطينية، فقط من خلال شراء قيادات فيها، بل هو أغدق المال على كل التنظيمات التي أصبحت تتغذى على المال العرفاتي (الذي كان في أكثره خليجي المصدر، وبدوافع معادية للثورة). رضخت التنظيمات، لأنّها كانت منتفعة من خيرات المال الخليجي المتدفّق في حينه. ليبيا وحدها كانت تمنح ما يعادل 100,000 دولار لكل أمين عام تنظيم في الحركة الوطنية اللبنانية. لم يكن القرار في المقاومة والحركة الوطنية مستقلاً، بل كان مرتهناً للمال الخارجي.

لكن لم تكن كل تنظيمات اليسار الثوري تنعم بهذه الخيرات (كان «حزب العمل» يتلقّى مساعدات من جراء عضويته في الحركة الوطنية، كما كانت الجبهة الشعبية تتلقّى المساعدات من عضويّتها في منظمة التحرير). كان يصل للأحزاب اليسارية الثورية بعضٌ من هذا المال، بطرق غير مباشرة، إذ إن الجبهة الشعبية كانت تساعد بعض هذه التنظيمات. لكن كل هذه الفصائل لم تتعامل مع قيادة عرفات على أنها قيادة معادية للثورة التي تطرحها. أصيب كل هذه التنظيمات بحالة من التراخي الثوري والتكلّس البيروقراطي، وكان انتظار حدوث شيء ما في الجنوب سيّد الموقف، من دون الإعداد الدقيق له. كان عرفات يتوقّع باستمرار اجتياحات إسرائيلية للبنان، من دون أن يكون، هو أو غيره، يعدّ العدّة لمواجهة هذا العدوان. إنّ المواجهة الفذّة لحزب الله في معركة تموز، تشكّل إحراجاً قطيعاً لكل فصائل المقاومة في لبنان، لأنها طرحت بديلاً لما كانت الحالة عليه في عام 1982، من تراخٍ وتكاسل وبرودة.

هذه لمحة عن تجربة سبقت وفشلت. لعلّ الذين يطمحون إلى مشروع تغيير ثوري (ولا أعني هنا هؤلاء الذين يصيحون بشعارات «ثاو، ثوا ثورة»، ويتحالفون مع «القوات» و«الكتائب» ووليد جنبلاط وسعد الحريري)، يتعلّمون من أخطاء الماضي، ولهم اليوم فرصة لإحياء ذكرى علي شعيب، لكن على طريقة علي شعيب.

> كان الاتحاد السوفياتي يهبّ لتمويل منظّمات يسارية فلسطينية وتسليحها ليس من أجل دفعها نحو الكفاح المسلّح بل لدفعها نحو مسلك أقلّ تطرّفاً

* كاتب عربي (حسابه على «تويتر» (@asadabukhalil

(مروان طحطح)

الذكرى الـ31 لاستشهاد أنور الفطايري
القضية الوطنية بين الأمس واليوم

سعد الله مزرعاني *

مع صدور هذا العدد من «الأخبار»، يكون قد مرّ على اغتيال القائد في الحركة الطلابية اللبنانية، في ما يُسمى عهدها «الذهبي»، 31 عاماً على التمام والكمال. رصاصات غادرة معلومة الفاعل، مجهولة المحرِّض (هكذا يبقى المجرم الحقيقي مجهّلاً، دائماً، سواء أتت تلك الرصاصات من الخصم أم من أهل البيت)، أردَته شهيداً وهو يواصل جولة وجهداً من أجل إنجاح مشروع مبكِّر لإعادة المهجّرين إلى الجبل. كانت تلك نهاية رجل وطني، شجاع واستثنائي، في التاسع من شباط من عام 1989 في بلدة «الجاهلية».

تبلورت شخصية أنور في كلية التربية في الجامعة اللبنانية، ابتداءً من عام 1968، بعدما التحق بصفوف الحزب التقدمي الاشتراكي، وبات مقرّباً من رئيسه، الشهيد كمال جنبلاط. من أفكار «المعلّم» جنبلاط وسياساته، استمدّ أنور الشق الأول من اقتناعاته ومواقفه. أما الشق الثاني، الذي أسهم في بناء شخصيته الكفاحية، فقد تكوَّن بالتفاعل مع زملائه في المرحلة الجامعية، حيث «كان تيار القومية العربية هو السائد»، كما يقول هو في مقابلة له في «السفير» (1984/11/9)، وكذلك بعد انتخابه رئيساً لـ«الاتحاد الوطني لطلاب الجامعة اللبنانية» عام 1971. قال في المقابلة نفسها: «انتُخبتُ بصفتي ممثلاً لتحالف القوى الديموقراطية في الجامعة». أصبح هو الرئيس الثاني للاتحاد، بعد الطالب في كلية التربية والناشط في «حركة الوعي» (جبهة الشباب اللبناني) عصام خليفة. ثلاثة عوامل لعبت لمصلحة اختيار أنور رئيساً للاتحاد بعد فوز اليسار، الموحَّد باسم «القوى الديموقراطية»، بأكثرية المندوبين. أوّلها، انتماء أنور إلى الحزب التقدمي الاشتراكي. ثانيها، علاقته الوثيقة مع قيادة منظمة الحزب الشيوعي اللبناني في الجامعة، والتي كانت قوة اليسار الأساسية فيها. ثالثها، شخصية أنور وكفاءته ودماثته وسعة أفقه وعلاقته الطيبة بالعديد من الطلاب والتنظيمات والمجموعات... مكّنه كل ذلك من بلورة توجه صحيح، جمع في الرؤية إلى الصراع، ما بين طرفي معادلته: أي الجانب التحرّري القومي، والجانب الوطني الاجتماعي الديموقراطي. تلك معادلة كانت تتبلور تباعاً، في مجريات تفاعل القضية والمقاومة الفلسطينية، من جهة، والوضع اللبناني وبرنامج ودور القوى الوطنية فيه، من جهة ثانية. تجدر الإشارة إلى أن «الحركة الوطنية اللبنانية»، التي قادها وأسهم في تأسيسها الشهيد كمال جنبلاط، بوصفه رئيساً للحزب التقدمي الاشتراكي وقائداً وطنياً وتحرّرياً عربياً مميزاً، قد اعتمدت المعادلة المذكورة بعد مخاض أثمر تحالفاً بين «الحركة الوطنية اللبنانية» وحركات المقاومة الفلسطينية. أثمر ذلك التحالف، بدوره، تجربة مقاومة وصمود كانت أبرز محطاتها عام 1982، في مواجهة غزو الجيش الصهيوني للبنان. مواجهة أثمرت، من ثمّ، نشوء مقاومة وطنية لبنانية ألحقت هزيمة غير مسبوقة بالعدو المحتل، عام 1986، على طريق التحرير شبه الكامل عام 2000.

ينبغي التوقف مطوّلاً عند هذه المرحلة، التي تمكنت فيها «القوى الديموقراطية» في الجامعة اللبنانية من أن تتكوّن كأكثرية ذات بناء جبهوي، بالاعتماد على قاعدة برنامجية مركّبة من الشأنين التحرّري القومي والوطني الاجتماعي، فضلاً عن الشأن النقابي. كانت، بالتلازم مع تجارب أخرى في قطاعات عمالية وتربوية، أفضل «بروفة» للبنيان الذي تجسّد بقيام المشروع الجبهوي للحركة الوطنية اللبنانية و«مجلسها السياسي» و«برنامجها المرحلي»، أواسط السبعينيات. قامت تلك الحركة بالتفاعل وبالتكامل بين خيار حازم بدعم المقاومة الفلسطينية ومنع تصفيتها في لبنان أيضاً (كما حصل في الأردن عام 1970)، وكذلك بإقرار برنامج مرحلي سياسي اقتصادي في لبنان، جوهره إلغاء الطائفية السياسية وبناء اقتصاد منتج غير تابع، بديلاً من اقتصاد الخدمات الذي أنشأته «الطغمة المالية» التابعة للغرب الاستعماري، وتعزّز دورها معه كطبقة مستأثرة ومستغلة سمّاها تقرير «بعثة إيرفد» طبقة الـ4%.

الحقيقة أنّ أنور بدا بصفاته الثلاث، المشار إليها آنفاً، شخصاً ضرورياً وغير قابل للاستبدال. قوة منظمة الحزب الشيوعي في الجامعة التي باتت لا تضاهى، لم تستدع أبداً السعي لإحلال عضو منها محل أنور في رئاسة الاتحاد. كذلك، ما كان مقبولاً أن يستبدلَ أنور بشخص من منظمة طلاب الحزب الاشتراكي نفسه، في ما لو قرّر الحزب ذلك. بات أنور، بهذا المعنى، شخصية قيادية جبهوية عامة، عملنا على إحاطتها بكل أشكال التعاون والتكامل، مكرّسين جهودنا الشخصية وجهود كفاءات كبيرة من رفاقنا الحزبيين في صفوف الطلاب والأساتذة والإداريين، من أجل إنجاحها. أثمر ذلك أن تحوَّل «الاتحاد الوطني لطلاب الجامعة اللبنانية» إلى مركز قيادي لكل حركة الطلاب والتلامذة في كل لبنان! تكاملت في تجربة الاتحاد عناصر عديدة، ما جعل تجربته ناجحة ومؤثّرة على المستويات الوطنية والتربوية والنقابية. شعار «ديموقراطية التعليم»، وأساسه تطوير وتوسيع وتعزيز التعليم الرسمي والجامعة اللبنانية، ارتدى بعداً وطنياً في شقّيه التربوي - النقابي والاجتماعي. لقاء «الاتحادات والروابط» في التعليمين الرسمي والخاص، الذي كنت منسّقه بحكم كوني مسؤول العلاقات الخارجية ثم الأمين العام للاتحاد، وحّد المواقف، وحفَّز المشاركة، وشجّع نشوء وتركيز صيغ تمثيلية جديدة، كما نظَّم تحركات تضامنية هائلة تحوّلت إلى حدث أول في البلاد بسبب ضغوطها على السلطة عبر الإضرابات والتظاهرات الصاخبة، وعبر الإعلام الذي واكب ودعم...

في مجرى ذلك تحققت مطالب مهمة: في مشروع المبنى الجامعي في الحدَث. مشاركة الطلاب في إدارة الجامعة اللبنانية وكلياتها بقانون ملزم. تعزّزت استقلالية الجامعة تربوياً وإدارياً. استفادة طلاب الجامعة المحتاجين من منح. أُقرّ مبدأ إنشاء كليات تطبيقية في الجامعة الوطنية، بعدما كانت حكراً على الجامعات الخاصة... انطلقت ورشة علمية بحثية تربوية مكّنت الجامعة اللبنانية من أن تتقدم على سواها في حقول عديدة. كذلك، تعزّز في الجامعة مناخ من الديموقراطية والدفاع عن الحريات في الجامعة وخارجها... وأصبحت الجامعة الوطنية مركزاً، ليس فقط لنشر التعليم والمعرفة، بل أيضاً للدفاع عن القضايا التحررية في مستواها الداخلي والخارجي.

كان أنور حاضراً في كل ذلك، وتحوّل إلى شخصية وطنية مؤثرة. وحين اختارت الطغمة المالية الحاكمة وممثلوها اللجوء إلى العنف، كانت الجامعة الوطنية أولى ضحاياهم بإلغاء استقلاليتها وإلحاقها بالسلطة السياسية، حتى في اختيار أساتذتها وفق قاعدة المحاصصة السياسية والطائفية على حساب الكفاءة والأهلية.

عبر أنور بسهولة فائقة إلى قيادة الحزب التقدمي الاشتراكي. بعد اغتيال الشهيد كمال جنبلاط، صمد وواجه وحصّن الحزب. خاض معاركه العسكرية، ليس من دون أخطاء، لكنه ظلَّ حريصاً على اتباع بوصلة وطنية جعلته يتقدم الصفوف في مشروع عودة للمهجرين، لم تكتمل شروط نجاحه الموضوعية والذاتية، أوائل عام 1989، فذهب شهيداً في كمين أسود يحرّكه التعصب والفئوية والشبهة. رغم مرور الزمن، وتبدّل الكثير من الظروف والمواقف، من المفيد جداً مراجعة التجارب، وخصوصاً الناجحة منها، من أجل استخلاص دروسها في هذه المرحلة التي طرح فيها تعاظم الأزمة الاقتصادية والسياسية مسألة التغيير الإنقاذي، فيما تفتقر القوى الوطنية إلى برنامج يوحّدها وصيغة تفعّل دورها.

*** كاتب وسياسي لبناني**